(الفصل الثامن)

لا نظن القارىء يجهل الان الغريب في زي الاعراب المعروف بابي السلة والفتاة المقيمة معه . ولكنه يتوقع شيئاً من اخباره قبل مجيئه الى طبريا ومن قصة الفتاة بعد ان أُلقيت في السجن . فان تلك الدعوى دعواها كمثل الكثير من الدعاوي التي تسمع في محاكم البلاد فتخفى حقيقتها على رجال الشحنة والقضاة . أو انها تخفى عمداً وعدواناً حباً بكسبٍ ، او ارضاءً لصاحبٍ نفوذٍ ، او تزلفاً لذي امرٍ ، فيبرأ مذنب ، ويُتهم بريء ، ولا يذنب الحق والعدل في كلا الحالتين غير المحكومة الاثيمة .

واننا لنسرد الان ايجازاً خبر القضية التي ألبست بيت مبارك عاراً لا تمحوه الايام ، واقامت رجال الحكومة والمدينة ، وأشغلت القس جبرائيل عن خصومه الرهبان ، واضطرته في نهاية الامر الى ان يخرج من الدير

ما كادت تشرق الشمس على تلك الجريمة حتى ضجت الناصرة باخبارها وتعددت حسب العادة في مثل هذه الحوادث الاشاعات . فمن الناس من قال ، ان يوسف مبارك قتل ابن عمه غيرة على عرضه . ومنهم من قال ، انه مريم سبب الجريمة والست هند مرتكبتها . ومنهم من اشاع ، ان للرهبان اصدقاء الست هند يداً فيها . وما احد ذكر عارفاً ، بخير او بشر . ذلك لان الشاب كان متغيباً معظم الوقت عن البلد ولم يخطر أمره في بال احد من الناس اذا استثنينا المدعي العمومي .

ولما نمى الخبر الى القس جبرائيل صباح ذاك اليوم عرول الى بيت اخيه

— قد يكون علم ان هناك فتاة — قسيس اقتدي ابن حرام — الله يوفقه — اشرب - اشرب .

اما القسيس فبات بعد ذلك يراقب الغريب فلما شاهده في اصيل اليوم التالي ذاهباً الى طبريا سار توّاً الى البيت الذي اهداه احمد اليه فالتقى قدام الباب بفتاة مشحوبة اللون نقيلة الحركة عيناها ذابلتان والكآبة بادية في وجهها . فالقى اليها السلام فردته واجفة .

— كأنني عرفت الرجل المقيم معك يا بنتي فجئت اتحقق ذلك

— وماذا تريد ؟

— لا شيء سوى التعرف والالفة انا غريب عنا أليف الضجر

فجزعت الفتاة وهمت بالدخول الى البيت

— لا تخافي يا بنتي . فقد اكون متطفلاً ولكن الغريب الى الكريم نسيب . من هو الرجل المقيم معك ؟

— ابي

— هذا ما ظننته . ومن اين انتم .

— من الكرك .

— واسم ابوك

فلفقت الفتاة اسماً ثم قالت — تفضل زرنا عندما يكون ابي هنا . ودخلت البيت واقفلت الباب . فعاد القسيس وهو حائر في تصرف الامرأة مشكك في قولها .

وبينما هو عائد الى غرفته في الحمام ألتقى بالغريب في الطريق فتبادل الاثنان نظرة سريعة وكل منهما سائر في سبيله ثم التفت الغريب كأنه يريد ان يتحقق ظناً فرأى القسيس واقفاً يلتفت اليه .

— هو هو بعينه . نبذ الثوب وتزوج . سبحانك يا رب .

وفطن القسيس اذ ذاك الى تلك المقابلة في لبنان وتذكر السؤالات التي سئلها . فقال في نفسه — الاوفق ألاّ يعلم بوجودي عنا

اما الغريب فلما وصل الى البيت اخبرته الامرأة بزيارة القسيس وسؤاله عنهما .

فرفع يده الى جبينه متبجحاً — هو بعينه — هو القس بولس عمون ذاك العالم الفيلسوف الذي قابلته في لبنان . وهذه الورقة التي عثرت بها عند الحمامات لا شك انها من اوراقه . ثم قرأ فيها ثانية —

« كلما فكرت بالماضي ماضي حياتي ينقبض قلبي . اجمل الاسرار الدينية سر الاعتراف ... لولاك يا ربي لمن يعترف المجرم الاثيم »

ثم قرأ ما كتب في الجهة الثانية وقال — ليس هذا احد يحسن مثل هذه الاشياء ويكتبها . والاعتراف ! الحق معه لمن يعترف المجرم الاثيم لولاك يا رب ؟

وبات الغريب حائراً باثراً تلك الليلة يفكر بالقس بولس عمون وبابليس البلان . واستيقظ صباحاً وجاء الى الحمامات ليقابله فقيل له ان القسيس سافر مساء البارح .

يستطلعه الحقيقة . وكان يوسف افندي قد استنطق العشية لطيفة ، فاخبرته بعد كثير التردد بما شاهدت . فاخبر اخاه القسيس وسأله رأيه في تلك المحنة السوداء . وليس يوسف مبارك اباً رومانياً ليجلس في كرسي القضاة فيحكم على ابنه المذنب بالسجن او الموت . وانما الضعف البشري والحنان الابوي سولا له الكذب ، فقال ، ان عارفاً كان غائباً ليله ارتكبت الجريمة ولم يزل . فوافقه القسيس في ذلك على شرط ان يساعده في خلاص الفتاة المتهمة زوراً وظلماً .

ثم ذهب القسيس الى السجن فقابل مريم وسألها ان تصدقه الخبر . فقالت انها لا تعلم شيئاً ، واصرت على انكارها . وكان الهلع قد استولى على الفتاة فأمست قليلة الكلام ، كثيرة الاوهام . على انها لم تغير من قصتها مثقال ذرة ولم تقر ابداً بما كانت تعلم . قالت انها لا تدري من القاتل ، ولم تقل غير ذلك ، واقسمت يميناً للقس جبرائيل انها بريئة .

وظلت الفتاة اربعة اشهر في السجن تقاسي مر العذاب من آلام ظاهرة ، وآلام خفية ، ريثما تبحث المحكومة وتحقق في الدعوى

وقد قيل ان المدعي العمومي اظهر في الاجراءات من اصابة الرأي ، وطهارة الذيل ، وعفة النفس ما قلما شاهده ابناء الناصرة في امثاله . كيف لا وقد استنطق بيت مبارك كلهم من الست هند الجليلة حتى العشية . هذا ما عرفه الناس وقد فاتهم ان يوسف افندي وكلماته كانت تحرك في كل هذي الاجراءات قلم المدعي العمومي ولسانه .

وقد شهد يوسف افندي نفسه انه ساعة ارتكبت الجريمة كان نائماً وان ابنه عارفاً غائب منذ اسابيع ، وانه لم يرَ ساعة جاء يلبي صراخ الخادمات غير الفتاة مريم في غرفتها والجثة تحت السطح . وكذلك شهدت الست هند والخادمة ظريفة . اما العشية فقالت تزيد على ذلك ، انها حين فتحت شباك غرفتها رأت رجلاً لابساً ردا، اسود يسحب الجثة من غرفة مريم ويرميها تحت السطح ، ولكنها لم ترَ وجهه .

ثم جاء المستنطق والقائمقام الى موقع الجريمة يفحصان المكان ويدققان النظر في هيئته وشكله . فوجد المستنطق ان للسطح درجاً من الحجر يصل الى نصف الحائط فيظل بين آخر درجة منه والارض علو مقداره اربعة اذرع يستطيع ان يثب اليها اي كان من الرجال .

فقال المستنطق وقد انجلى له الامر وانكشف السر ، ان الجاني تسلق هذا الجدار الى هذا الدرج الى هذا السطح واتخذ بعد ارتكابه الجريمة ذات الطريق هارباً . فاسرّ اليه اذ ذاك القائمقام ما يعرفه بنفسه من تردد الرهبان على بيت يوسف افندي وانشغال قلب احدهم بحب مريم . فسكت المستنطق اذ ذاك واوقف الاجراء والاستقصاء .

اما مريم فلم تكن لتقر بما جرى لها في بيت مبارك وأنكرت انها تحب احداً في البيت او في المدينة او ان احداً في البيت او في المدينة يحبها . الا ان الست عندما ألقت نظر المستنطق الى القس جبرائيل قائلة انه هو المفتاح الوحيد لقلب مريم . وقد يكون المغربي على قتل ايوب مبارك . لان الفتاة

تشكو اليه الصغير والكبير من امرها دائماً . وشد ما كانت شماتة الرهبان وشد ما كان سرورهم لما استدعي القس جيرائيل الى سراي الحكومة ليستنطق مثل سائر الناس . فامتثل القسيس امر المدعي العمومي وبعد ان اجابه على سؤالاته كلها زار مريم في السجن وعرفها مطمئناً ان ما تقوله في كرسي الاعتراف لا يطلع عليه غير الله والكاهن . فاعترفت له بكل شيء — بفعلات اخيه وتحبب ابن اخيه لها وبقتله ايوب مبارك وباغتصابه اياها وجعلت اذ ذاك تبكي فاتبه القسيس الى حالتها وجاء بعد ان عرفها يسأل القائمقام الاسراع في استماع دعواها لان الفتاة حامل . وقد ترتكب الحكومة جريمة لا تغتفر اذا داومت التأجيل من اسبوع الى اسبوع ومن يوم الى يوم .

وفي اوراق التحقيق التي رفعها المدعي العمومي الى المحكمة ويوسف افندي عضو من اعضائها قال : انه بعد طويل البحث والتمحيص والاستقصاء ظهر ان القتيل مطعون في ظهره ثلاث طعنات بخنجر وجد مرمياً على الارض ! — وهذا ، وأيم الله ، يستوجب طويل البحث والاستقصاء — وان رأسه مكسور من صندوق الزهور الذي وقع فوقه — وهذه من اكتشافات المدعي العمومي النير الذهن الذكي الفؤاد — وان الطعنات في ظهره وحدها لا تسبب الموت — هنيئاً للحكومة عالماً علماً اطبآء فقهآء ! — فلو فرض انه الفتاة قاتلة ايوب مبارك فليست هي التي رمته تحت السطح ، والعشية لطيفة تشهد على ذلك . والمدعى عليها تقول ايضاً انها لما كانت في قبضة ايوب مبارك

وأت رجلاً يطعنه في ظهره فهلع قلبها وأغمي عليها فلم تر غير ذلك . فلو فرض انها هي القاتلة فينبغي ان يكون لها شريك في الجريمة . وحكم المصحف الشريف في سورة يوسف يصح في هذه القضية — وهذا منتهى الذكاء والبراعة في تحقيق المدعي العمومي — اذا كان قميصه قُدَّ من قبل فصدقت وان كان قميصه قُدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين — والقتيل طُعن من دبر ساعة كانت الفتاة مريم في قبضة يده . وهو فوق ذلك طويل القامة فلو فرض ان الفتاة هي الطاعنة تلك الطعنات لوجب ان تكون الطعنات في اسفل ظهره لا بين كتفيه . فلما تحقق من موقع الجريمة اذاً ومن شهادات الشهود يستدل ان رجلاً ، وقد يكون لصاً ، تسلق الجدار الى الدرج ومنه الى السطح قصد السرقة — ليهنأ العدل بارتيابه ! — فلما رآه ايوب مبارك قبض عليه فطعن اللص ايوب تلك الطعنات ورماه تحت السطح وفرَّ هارباً ... !

وبناءً على ذلك برَّأت المحكمة مريم واطلقت سراحها . واوقفت الاجراء في الدعوى لظنها ان المجرم راهب لا لص كما ادعى المدعي العمومي النير الذهن الذكي الفؤاد .

وبرَّأ الناس ايضاً مريم ولكنهم لم يبرأوا بيت مبارك . فكانوا اذا ذكروا الحادثة يقولون — « يا للعار ! » حانقين ولم يقل واحد منهم — « يا حرام ! » آسفاً .

واضطرَّ يوسف افندي ان يسافر الى سوريا هرباً من سهام الرأي العام

وتخفيفاً لمضض الآلام التي اصابته من هذه الفاجعة ورغبته بالاجتماع بابنته عارف ليطلعه على ما جرى ويعود به الى البيت

اما الست هند فلم تفتأ ان تنشر الاكاذيب عن سلفها القسيس وتشتغل سراً وجهراً في نفيه من الدير . وان الاهتمام الذي اظهره في هذه الفاجعة لما يحقق ظنون بعض الناس ويثبت حجة الرهبان عليه . وكذلك كان . فثار الرأي العام عليه وصار اذا مشى في اسواق البلد يشار اليه بالبنان — هذا مخلص مريم وابوها ! — واذا اقام في الدير لا يسمع ما هو أخف من ذلك وقعاً على اذنه وقلبه .

وقد حار القسيس في امر مريم لما خرجت من السجن وحالتها تشير الى ما هي فيه . فاين يذهب بامرأة حامل ؟ الى من يأخذها وهي اليوم لا تستطيع الخدمة ، بل هي في حاجة الى من يخدمها ؟ جاء بها الى الدير فانزلها في غرفة هناك وبقيا يفكر في امرها وفي مصيره . فهاجت عليه خواطر الرهبان وتهددوه والقضاة بالطرد .

ولقد طالما قال — الزهد في الاديرة أضحوكة سخيفة — خداع وضعف وجبن وخيانة . والنسك في الاديرة تجديف على اسم الله القدوس

وها قد حان الوقت ليعمل بقوله . فوطن النفس على الرحيل ومريم ليخلصها مما هي فيه ، لينقذها من عار يكتنفها ، ليكون لها عوناً في محنة جرّ ما هو عليها اذ ادخلها خادمة في بيت اخيه . فجاء بها الى شاطئ البحيرة متنكراً في زي العربان ليظل بعيداً عن الناس غريباً واستأجر بيتاً خارج

الحمامات عند مقابر علماء اسرائيل . فاقام واياها فيه وهو يقول — سأبني قرب البئر صومعتي وساحرق الحبل والدلو . سأقيم عند الماء واعف عنها . هذا هو النسك الحقيقي . هذا هو الزهد المقدس

ومع انه اقدم على هذا العمل الخطير ثابت القدم ، جرىء القلب ، فلم يشأ ان يطول أوانه . ويذكر القارىء انه عند وصوله الى تلك الناحية سافر مع محمود البحري الى تلحوم لغرض جوهري يختص بمريم . فان له في سهل الغوير بيتاً وبعض املاك . ولم يشأ ان تقيم الفتاة هناك وهي في حالتها الحاضرة . فبعث احد اجرائه الى حينا بكتاب الى عارف ابن اخيه يبشره فيه ببراءة مريم ويسأله ان يوافيه حالاً الى البيت في سهل الغوير

(الفصل التاسع)

— ولكنه لطيف كريم ، يا امي . وعدني ببيت وبعريس اذا قبلت نصيحته واصلحت حالي وندمت على خطاياي

— هل هو كاهن نصراني ؟

— لا هو رجل غني . له املاك في جهة تلحوم وعنده أجراء . ويريد ان اقيم هناك معهم فاخدم في بيته ويزوجني بشاب ظريف ابن احد اجرائه

— مالك وهذا التلفيق . هو خداع منافق مثل سائر الرجال . كم يدفع اجرتك في الاسبوع ؟

— مجيديين .

— مجيديين فقط ؟ اطلبي منه اربعة مجيديات . يدفعها . وحق الله اذا

كان يحبك يدفعها . وابقي معه الى ان يسافر الى بلاده ، ثم عودي الى شغلك ، ولا تتركي تلميذاته . من يعيشني اذا بعدت عني وانا الآن مريضة . وافرضي انني شفيت غداً فلا احد يلتفت الي . ولّت ايامي ، يا بنتي ، كبرت وشبت من الويل والشقا . ألا ترين كيف هجرنا ذاك اللعين ابو هذا الولد . لا عاشت الاولاد ، ولا عاش الرجال !

وكان الطفل اذ ذاك نائماً فاستفاق وجعل يبكي ، فجذبته بعنف اليها ودقت برأسه على صدرها وهي تقول — ارضع ترضع السم . ارضع ترضع البلاء . سأرميك في البحيرة يوماً ما وارتاح منك ومن بذرة ابيك . عاتي الأبريق ، يا هيلانة احس ان في جوفي اتون نار . آه ما احلى الموت ! هنيئاً للموتى !

— انت دائماً يائسة ، يا امي . ويحق لك ان تفرحي اليوم

— نعم ، يا بنتي . الجنة التي نحن فيها تفرح القلب . اسمعي ألم تقولي لي ان الامرأة التي مع هذا الرجل حبلى ؟

— بلى .

— ارجعي اذاً الى بيته ، وابقي عنده الى ان تلد فاخبرك بعدئذٍ ما تفعلين . واطلبي منه اربعة مجيديات كل اسبوع . أفهمت ؟ اواه ! اين جمالي يخدمني الآن ؟ فاني الآن اعرف كيف انتفع به — كفاك ، كفاك يا ابن الستين كلب ! قطعت ثديي . عس ! لا تبك . لا تبك — الابريق يا هيلانه ! احترق قلبي والله . احترق كبدي — أفهمت ما قلت لك ؟ اطلبي منه اربعة مجيديات

كل اسبوع . وهبه البيت والعريس .

— وربما كان هو العريس بنفسه . والله ، يا امي ، هو « شلبي » وكريم ولطيف وغني . احبه والله احبه .

— الله يعمي قلبك . حماره . دابة . ماذا يريد الرجل من بنت الهوى ؟ زواجها ؟ لم تزالي بسيطة يا هيلانة . يتمتع بك ويتركك مثل ما تركني ذاك النذل . الله يبليه بالبرص . الله يبليه بالطاعون . أتعرفين ما كنت اصنع لو كنت اليوم صبية جميلة ، يا بنتي ؟ اعطيني الابريق — لو كنت اليوم صبية جميلة لبنيت علية على شاطىء البحيرة اكرسها للغرام وللموت فامنحه فيها حياة الرجال واجعلهم بعد ذلك طعماً للاسماك . اواه ! روحي الى شغلك يا بنتي . اعطني وانسي ! ولكن لا تنسي أن تطلبي من معلمك اربعة مجيديات .

وعادت هيلانة الى بيت القس جبرائيل لا تعرف باي نصيحة تنتصح — أبنصيحة امها ام بنصيحة الغريب سيدها ؟ ولكنها استسلمت الى التقادير وظلت تخدم القسيس ورفيقته شهرين فتطبخ وتغسل الثياب وتجيء الى البلد تقضي حاجاتهما وتبتاع لهما زاداً . وكانت ترافقهما في نزهاتهما ايضاً . كأنها تقيم معهما رفيقة لا خادمة . وكان سيدها يحسن اليها ويرشدها ويعاملها ومريم معاملة واحدة .

ولم تكن مريم لترضى بذلك . فازداد غمها واحتدمت نار الغيرة في موقد أحزانها فنفرت من هيلانة ولم تتمالك نفسها فاخذت تخشن لها الكلام

وتسيء معاملتها . وكانت هيلانه اذا حدثت مريم تكثر من ذكر الرجال وتردد بعض اقوال امها البذيئة .

— قلت لكِ مائة مرة لا ترددي على مسمعي مثل هذا الكلام .

— لا تؤاخذيني . ولكن مثلك لا تشمئز من ذكر الرجال

— سدي فمك

— امرك يا معلمتي . ولكني طالبة الافادة . سمعت الناس يقولون انك زوجة معلمي ولستِ ابنته .

— هذا لا يعنيك يا هيلانة .

— بلى يا معلمتي . هذا يهمني . فاذا كنتِ زوجته لا افسد والله بينكما . بل اعود الى بيتي . الى شغلي

— وما معنى كلامك ؟

— معنى كلامي اذا كنتِ زوجة معلمي فرزقي اذاً على الله . ولو احبني فانا لا افتن بينكما .

فلم تتمالك مريم ان ضحكت . فتشجعت هيلانة وتمادت بمثل ذا الحديث فاسكتتها مريم وضربتها .

فشكتها الى القس جبرائيل فطيب خاطرها ونصح لمريم ان تعاملها بالحسنى .

— لا تقدر ان تغير خادمتنا كل اسبوع يا بنتي ونحن نبتغي الستر والبعد عن الناس . ولا تقدر ان نعيش هنا بلا خادمة . فاصبري عليها من اجلي

وبعد ايام بعث القسيس هيلانة برسالة الى اخيه في تلحوم فأدتها وجاءت بالجواب وفي عودتها عرّجت على طبريا لتزور امها . وكانت قد تعافت فاخبرتها بما جدّ في امرها .

— الحق معك يا امي . كنت اظن ان البيت في تلحوم قصر واذا هو كوخ ، وان الشاب ابن اخيه معلمي ظريف واذا به مثل القرد والامرأة التي معه خبيثة شرسة . واظنها ابنته اكرهها من كل قلبي . ضربتني بنت الكلب وعيرتني . والله لو لم تكن في تلك الحالة لاخذتها بشعرها ومرغت فمها بالتراب . لكسرت رأسها والله .

— وهل قرب يوم ولادتها ؟

— لا ادري ؛ ولكني سمعته يقول لها ان هذا شهرها . غريبة والله اطوار هذا الرجل فقد اقام في بيته حاجزاً من الخام ، فاقام انا والامرأة في شقة منه ، وينام هو في الشقة الثانية . وما رأيته مرة يقترب منها لا ليلاً ولا نهاراً . وقد راقبته مرات في الليل وانا اتناوم — يظهر يا امي انها ابنته .

— لا فرق ؛ ابنته كانت او امرأته . فهو يحبها وهو غني أليس كذلك ؟

— بلى .

— اذاً ينبغي ان ننتقل من هذا البيت الى حارة اخرى في قلب البلد . فقد دبرت الامر واذا سمعت كلامي وعملت باشارتي تنتقي . ابقي اليوم عندي تساعديني في النقل . وغداً تعودين الى بيت معلمك .

وفي اليوم الثاني عادت هيلانة تحتفظ بوصية امها وتحمل الى القس

جبرائيل جواب اجيره في سهل المنير وقد قال فيه انه سافر الى حيفا وبيت هنالك عن عارف فلم يجده ولم يسمع له خبراً .

فمزق الكتاب وملامح الغيظ والفشل تبدو في وجهه .

— واين كنتِ الليلة الباردة ؟

— نمت عند امي .

— حسن . ولكنني اسألك ألاّ تغيبي في هذه الايام ابداً . لازمي معلمتك ، ولا تغيظيها بشيء . والتي مثلها اليوم تضيق اخلاقها ، فكوني طائعة امرها صابرة عليها . أفهمتِ ؟ — واعطاها ثلاثة مجيديات .

— نعم . امرك ، سيدي .

— وساعطيك ليرة عندما تلد معلمتك .

— كثر الله خيرك .

وراحت الفتاة الى شغلها ، وراح القس جبرائيل يداوي نفسه في الحقول . وكان الشتاء وقتئذٍ قد همّ بالرحيل ، فصعد في الجبل فوق الحمامات وجلس على صخرة هنالك بدأت تنطق بجمال الربيع ، فنورت في نخاريبها بعض زهيرات اخذ القسيس واحدة منها وطفق يقلبها في يده وهو يقرأ في كتابه المحبوب «كتاب الاقتداء بالمسيح» . ثم نظر الى البحيرة وقد صفا وجهها وهي نائمة تحت قدميه كالطفل في رابعة النهار والنسيم يهز سريرها والحمام فوقها يتنحب وينوح ، فهتف سارحاً

— يولي الشتاء والحمام لا يفتأ ينوح . يحبي الربيع والحمام يتنحب

وينوح . تبتسم الطبيعة لهذه الاماكن المقدسة والحمام فيها ينوح . تنيرها الشمس فتدفئها وتحييها وينيرها القمر فيخفي معاصيها والحمام لا يزال ليل نهار يبكي وينوح . فما سرك ايها الحمام وما خبرك ؟ أفي نفسك نفس تلاميذ السيد ؟ أفي صوتك صوت المريمات ؟ أفي انحنائك تتجسد اصوات الدهور وانين الشعوب ؟ او هل هو نبأ من الباء الرب القدوس تردده الايام والاثام فيسمعناه في مهد روحياته الحمام ؟ آه ، اواه ! وان في الانسان مهما تقلبت اطواره ومهما تغيرت ايامه صوتاً مثل صوت الحمام حياً ابدياً

آه ، اواه ! ان في سرك ايها الحمام ، وفي خبرك . ولو تمت غدة اشرف مقاصدي واسماها ، لو تكلل غداً مسعاي في سبيل الفتاة مريم لكان الغد اسعد ايامي ، ولسمعت مع ذلك نوح الحمام — نوح الحمام في الجليل ونوح الحمام في نفسي . آه ، اواه !

« ارحمني يا رب حسب رحمتك . حسب كثرة رأفتك امح معاصي . اغسلني كثيراً من أثمي . ومن خطيتي طهرني . لاني عارف بمعاصي . وخطيتي امامي دائماً »

وبينما هو عائد الى البيت زالت سكرته الروحية واحس بنار الجسد تتأجج في صدره فأخفى دخانها نور بره وتقواه وأسمعه اضطرابه صوتاً يقول — قسمت يميناً ان ارعى هذه الفتاة واصونها من تصاريف الزمان . وحين اراها تهتز لها جوارحي كلها . يبتسم لها فؤادي . احبها واكرمها . اودها بعيدة مني قريبة . لحظاتها ذبحت نذري . سكوتها هدم مذبحي . تأوهاتها

فرطت مسبحتي · كلماتها محت اسم الله من كتاب صلاتي · آه اواه ! ايلياس البلان ! ايلياس البلان ! اين انت ؟ عارف ، عارف ! اين انت ؟ لو علمت اليوم ان اباها في الهند لذهبت بها اليه · ولو علمت اليوم ان عارفاً في اميركا لسافرت واياها الى اميركا ·ولكن الله وقد أخفى عني وعنها الاثنين يريد ان احمل الحمل وحدي · لتكمل مشيئتك يا رب · لتكمل مشيئتك · ولكن القس جبرائيل عبدك انما هو بشر يا ربي · ومنذ اخذ يدنو مريم بيده يوم ماتت امها ساره ما زالت امواج الحب والعفة تتلاطم حول نفسه

« قد سررت بالحق في الباطن ففي السريرة تعرفني حكمة · طهرني بالزوفا فاطهر · اغسلني فابيض اكثر من الثلج · اسمعني سروراً وفرحاً فتبتهج عظام سحقتها · استر وجهك عن خطاياي وامحُ كل آثامي · قلباً نقياً اخلق في يا الله وروحاً مستقيماً جدد في داخلي · لا تطرحني من قدام وجهك وروحك القدوس لا تنزعه مني ·»

ولم تكن مريم اقل غماً واضطراباً من القس جبرائيل بل كانت نفسها تردد دائماً صدى تأوهاته البشرية · وهي في بلاء اشد من بلائه · لانها وحدها لا تعرف لمن تشكو مصابها ولا لمن ترفع عتابها · الراهب وصيها يناجي الله فيجد في يقظاته الروحية بعض التعزية وهي تناجي نفسها فتزداد حسرة واحتراقاً · وان فتاة في عمرها ومزاجها لقيت باكراً اشد المحن واخبثها ولم تستيقظ الروح فيها لجديرة بعطف غير عطف الناسك وبحب بشري لا تشوبه الهيات البررة الزاهدين · واما القس جبرائيل فكان يمازج عطفه

وحنانه وارشاده شيء يليل بال مريم وزاد بحيرتها وعذابها · فلم تدرك سر اضطرابه ولم تحسن فهم ارشاده وعتابه · ولما ألبسها الذخيرة التي اعطته اياها ساره لم يقل لها ان تلك الذخيرة من امها · فظنت الفتاة انها منه وفرحت لذلك · الا ان اقامتها واياه في ذاك البيت تحت سقف واحد وليس بينهما غير حاجز من الخام ازعجها جداً وكاد يهد قواها · وفوق ذلك لم يكن يأذن لها ان تحدث احداً من الناس او ان تخرج وحدها الى النزهة · فسئمت مريم الحياة وضاقت صدراً · ولم تكن تجسر ان تحدث القس جبرائيل بما يكن فؤادها · ولكن ما بدا في شحوب وجهها وفي ذبول عينيها وفي ضعفها وسقمها واخلاقها كان ينطق بافصح بيان بما في اعماق قلبها الكسير · فيسمعه القس جبرائيل ساكتاً صابراً ، ويلجأ الى الله سوناً لنفسه لا صوناً لنفسها ، وتخفيفاً لالامه لا تخفيفاً لالامها ·

وعلى هذه الحال قضت واياه شهري حبلها الاخيرين · وفي ذات يوم عند غروب الشمس بينما كان يصلي على شاطىء البحيرة جاءت هيلانة اليه تقول

— معلمتي متألمة جداً · فبعثها الى البلد تستدعي قابلة ·

— اسرعي · خذي العربة عند الحمامات · وارجعي واياها حالاً ·

فامتثلت هيلانة امره · ولما وصلت الى طبريا ذهبت تواً الى امها

— الليلة · الليلة ·

— طيب · وهل استدعيتم القابلة

— انا ذاهبة الان اليها

— حسن . عند القبور بعد ساعة او ساعتين ولا تنسي ما قلت لك . تشجعي وتيقظي وكوني رشقة وشاطرة

وفي تلك الليلة ولدت مريم بعد طويل العذاب وشديد الالم طفلاً ذكراً . وكان القس جبرائيل ينتظر على شاطئ البحيرة خلاصها . فجاءت هيلانة تبشره بذلك . ثم سارعت الى جهة القبور فكلمت شخصاً واقفاً هناك تقول — بعد ساعتين . اجيئك بعد ساعتين .

وفي الساعة الثانية بعد نصف الليل ، وقد كانت القابلة انجزت عملها ونامت ، وكانت مريم والطفل والقسيس نياماً كذلك ، نهضت هيلانة تتسلل الى فراش القابلة فاخذت الطفل من جانبها فاستفاق باكياً . فاستفاقت لبكائه القابلة . فتظاهرت هيلانة بانها تريته وتطايبه لينام . ثم عادت الى فراشها تترقب الفرصة ونهضت بعد نصف ساعة فحملت الطفل النائم واسرعت به الى الشخص الذي كان ينتظرها عند القبور وعادت الى فراشها فنامت ناعمة البال نومة البرءة الاطهار .

ونهض القس جبرائيل باكراً صباح ذاك اليوم فدخل على مريم ليهنئها ويشاهد ولدها . وكانت النساء الثلاث لم يزلن نائمات فأيقظ القابلة وسألها عن الطفل . فنظرت حولها يميناً ويساراً ثم نهضت تصفق كفاً على كف وتصيح . فاسكتها القسيس وايقظ الخادمة هيلانه وما كاد يتم سؤاله حتى اخذت تبكي وتقسم بالله وبالانبياء . فاستدعا الاثنتين الى الخارج خوف

ان يوقظ لغطهما مريم فتعلم بالحادثة فيجهز عليها

— لما عدت انا الى البيت يا هيلانه كان البـاب مفتوحاً وكنتِ انتِ خارجاً ·

— نعم سيدي ·

— وهل اقفلتِ الباب عند رجوعك ·

— لا · تركته مفتوحاً حسب العادة · والله يميتني ويضربني بالسبع ضربات اذا كنت —

فاومأ بيده ان اسكتي · واوعز اليها والى القابلة ان يقولا لمريم ان ولدها عند المرضعة في البلد ترضعه الى ان تتعافى ·

وراح يسرع الى الحمامات مشتت الفكر مضطرب البال